بين الصحافة والادب

الصحافة والأدب صنوان تربطهما مودة وثيقة العرى . والصحافة والأدب كذلك عدوّان لدودان يتربص كل منهما النيل من غريمه ومنافسه .

قد يكون هذا عجباً ، ولكنها الحقيقة الجليّة

فالصحافة مهنة تتطلب أول ما تتطلب السرعة واليسر ، والأدب يقتضي أول ما يقتضي أناة وتجويداً . الأدب مالة على الصحافة والعكس غير صحيح، لأن الصحافة تستطيع أن تستغني عن الأدب إذا ضاق المجال وفاض سيل الأنباء والبرقيات . أما الأدب فلا يستطيع أن يستغني عن الصحافة لأنها بحكم سعة انتشارها وكثرة تداولها تعد أفضل وسيلة لنقل هذا الأدب إلى قارئيه . لذلك يحرص الأدب دائماً على مصادقة الصحافة، ويقبل رواده على التردد إلى الصحفيين رغبة في عدم إيصاد الأبواب دونهم .

ويحار الأديب الذي يشتغل بالصحافة ، أيجنح إلى الأدب فيكون مقلاً في إنتاجه جيداً أم ينحاز إلى الصحافة فيتوخى السهولة والسرعة ويُعنى بالخبر في ذاته لا بطريقة صوغه وتجميله .

ولنضرب لذلك مثلاً : إذا ذهب صحفي وأديب لمقابلة كبير من الكبراء ومحادثته وعاد كل منهما يدوّن ملاحظاته ، فإن الصحفي قد يقتصر من كلام الكبير على جملة واحدة أو إثنتين ويهمل بقية الحديث لأنه « إنشاء » لا أكثر ولا أقل . أما الأديب فإنه يبدأ بوصف هذا الكبير ، فيقول إنه أهيف القدّ انحسر الشعر عن جبهة عريضة توحي بالتفكير العميق ، يتحدّث إليك حديثاً ذا نغمةٍ موسيقية تحبب إليك طلب المزيد من مجالسته ، ثمّ يمضي يسرد كلامه كلمة كلمة ، بعد استعداد النابي والعامي وصوغه في قالب فصيح بليغ . ولا ينسى أن يشير بين الآونة والأخرى الى ابتسامة انفرجت عنها شفتا

الكبير ، أو رشفة من قدح ارتشفها ، أو سيجارة أشعلها . ويختم مقالته بوصف الطريقة التي حيّاه بها ذلكم الكبير .

هذه صورة لست أحسب أنها دقيقة ، ولكنها تمثل اتجاهين متضادين ، وكذلك يحرص الصحفي المحض على أن لا يتيح للأديب الوصّاف أن يتسلل الى صحيفته خشية استغلال أنهر الصحيفة المحدودة في كلام لا يقدم ولا يؤخر ، وإن كان من المؤكد أن يفوت عليه نشر بعض الأنباء ذات الشأن .

وإذا صدر كتاب وأراد صحفي أن يكتب عنه كلمة في جريدته فهو بين أمرين : إما أن يكتب عنوان الكتاب واسمي مؤلفه وناشره وثمنه ، وإما أن ينتقي منه فصلاً طريفاً أو حادثة معينة ينشرها كاملة أو موجزة .

أما الأديب فإنه لا يقنع بهذه « النشرة » وإنما يقبل على تلاوة الكتاب بتدبر وعناية شديدتين ، ثم يكتب عنه الصفحات في إطراء المؤلف وتقريظ الكتاب فصلاً فصلاً إن لم يكن كلمة كلمة . ولكن بعض الصحف التي لا تود أن تخاصم الأدب خصاماً شديداً تتوخى التوسط بين المذهبين ، فهي توفّي الكتاب حقّه من الناحية الاخبارية وتجود عليه بقليل من الناحية الأدبية ، وهي في هذا تمسك العصا من وسطها .

والصحافة لا تعترف بالمرض ولا بالمطر ولا بالبرد ولا بالليل ولا بالحر ولا بالمسافات ولا بالعطلات ولا بالمواسم ولا بشيء . ولكن الأدب يعترف بها ويقيم لها وزناً .

ونعني بذلك أن الصحفي قد تصيبه الحمى ولكنه وهو يفترش سريره يباشر عمله فيتصل بهذه الدوائر وتلك ويقف على الأنباء ثم يبلغها بالتلفون إلى صحيفته متحدياً المرض وسطوته . وإذا اكفهر الجو وعصفت عاصفة رملية هوجاء كما حدث من بضعة أعوام ، سارع الصحفي إلى الشوارع يصور لها صوراً ويدنو منها ليسجل تحولاتها واتجاهها وألوانها ، بينما يعتصم سواه بالدور ، ويحول الجزع والهلع دون هذا التتبع والرصد . وإذا نشبت معركة أو شهرت حرب طار الصحفي إلى حيث تكون وأبلغ جريدته كل خطوة وكل حادثة

أما الأديب فلا يزال البعض يزعم — وأحسبه على صواب — بأن الوحي لا ينزل عليه إلا تحت ظروف خاصة وأن شيطان الشعر لا يتجلى لصاحبه إلا في أحوال معينة

فهذا لا يكتب أدبه إلا في الساعة الرابعة صباحاً ، وذاك لا ينظم قصائده إلا على ضوء شمعة خابية ، وذاك لا تتفجر ينابيعه إلا على شاطىء البحر . وهكذا! مما قد لا يتوفر للصحفي . فالصحفي يعمل في كل ساعة من ساعات النهار والليل ، يؤدي عمله في الترام والنادي والسينما والشارع ، في الجو الصاخب والهدوء الشامل ، بين آلات الطباعة ذات الضجيج والعجيج ، وعلى المكتب الانيق الفاخر في حجرته . يباشر عمله فلا يهمه أتلطخت ملابسه بالزيت أم خضبت يداه بالحبر . الصحفي يستقي الانباء من الحقير الدنيء ، ومن الرفيع السامي ، من الحارس ومن المحروس ، من سائق السيارة وصاحب المكتب ، من المصادفة والمثابرة .

أما الاديب ، فلا أحسبه على هذا بمستطيع لانه يقول بان هذا جهد ضائع ، فما قيمة الخبر إذا قرأته بعد نشره بيوم واحد . إنه يصبح نسياً منسياً ، ما يكاد يولد حتى يموت . أما الأدب ، فإنه مخلد تتناقله الاجيال ويردده بنو كل عصر ويلتذ بتلاوته المحدثون .

هذا هو الخصام وهذا هو التنافر بين الفنين المتصاهرين : الأدب والصحافة .

أما الصداقة التي تؤلف بينهما فمحورها الكلمة والمداد والقلم والطرس

هذه صناعة كتابة ، وتلك مثلها صناعة كتابة

هذا عمل مشاع ، وذاك عمل مشاع .

الصحافة تفتح صدرها أحياناً للأدب ، والأدب يرسم الطريق أمام الصحافة . حتى لقد استقل الأدب بصحافته الخاصة فأصدر رجاله مجلات شهرية وأسبوعية ونصف شهرية يردعونها نفثات أقلامهم ونتاج قرائحهم ومحصول بحوثهم ، وهذا ما نستطيع أن نطلق عليه اسم أدب الصحافة أو صحافة الأدب لان الامتزاج بين الفنين يصل إلى مرتبة عالية

واذا رجعنا الى تاريخ الصحافة العربية تبينا أن أسبق الصحف الى الظهور - ومنها عدد لا يزال على قيد الحياة كالوقائع المصرية والاهرام والمقطم - كانت تعنى كل العناية بالأدب ، ولا تنشر الانباء الا كما تنشر الاعلانات ، فجريدة الوقائع المصرية مثلاً كانت تصدر حافلة بالمقالات الادبية التي يكتبها محرروها وتنشر الى جانب ذلك ما تصدره الحكومة من قوانين ولوائح واعلانات وتعيينات وترقيات وهلم جراً .

وجريدة الاهرام كانت عندما أسسها المرحومان سليم وبشارة تقلا تصدر أسبوعياً

في الإسكندرية باللغة العربية ، ثم نقلت الى القاهرة وأخذت تصدر طبعتين واحدة باللغة العربية متضمنة المقالات الأدبية المطولة ، وثانية باللغة الفرنسية . وكانت تتعرض أحياناً لبحث شؤون البلاد الاجتماعية . وظلت تسير على هذا النهج ولم تتصف بالصفة الاخبارية وتتغلب على كل ناحية أخرى فيها حتى آلت ملكيتها الى جبرائيل تقلا باشا وولي هو أمرها بنفسه .

أما جريدة المقطم ، فكانت كذلك جريدة أدبية تنشر نفثات أقلام الأدباء السوريين واللبنانيين في مصر . بل إن مؤسسيها غلبت عليهم الصفة الأدبية لأن اثنين منهما ألفا قبل المقطم مجلة « المقتطف » في لبنان ثم نقلاها الى القاهرة وهي مجلة أدبية وعلمية كما يعرف قراؤها . وظل الدكتوران يعقوب صروف وفارس نمر باشا يشرفان عليها الى جانب اشرافهما على المقطم حتى توفي أولهما وأقعد تقدم السن ثانيهما . ولا يزال نمر باشا يوالي الأدب كل عناية ويسعى جهده الى صغ الصحافة بهذه الصبغة ، كما أنه يبذل جهداً محموداً في مجمع فؤاد الأول للغة العربية .

ومن يرجع الى أعداد « الجريدة » التي كانت تصدر في سنة ١٩١٢ والسنوات التي تليها يقرأ مقالات أدبية رفيعة لمعالي الدكتور لطفي السيد باشا يستطيع الأديب أن يدعي انها أدب ويستطيع الصحفي أن يقول : بل صحافة ، ويمكن للعلماء والباحثين أن يقولوا : بل هي علم وبحث .

والتعليق على الأنباء هو في الواقع لون من ألوان الأدب ، لأن المعقب الصحفي يبسط النبأ مبيناً أسبابه ودواعيه في أسلوب كثيراً ما تكون السهولة المتنعة من صفاته . والمقالات الإفتتاحية والتوجيهية هي كذلك ضرب من ضروب الأدب لأن كاتبها يتوسل بالمنطق والحجة والأسلوب القوي على اقناع الجمهور وأولي الأمر بعدالة القضية التي يدافع عنها أو بصواب الرأي الذي يدعو إليه .

ولا ريب في أن الأديب إذا أحسن الوقوف على الحقائق المتعلقة بموضوع معين كان أقدر الناس على الإقناع وأمهرهم في كسب التأييد الذي يعوزه . ولهذا السبب عينه نبتت فكرة أخذت تنتشر في معظم بلاد العالم تقول إن الأديب يجب ألا يقتصر على ذاته

وإنه ينبغي أن يتصدَّر الأدباء حركات الإصلاح الاجتماعي وتوجيه الرأي العام عن طريق الصحف الى الهدف المبغيّ

والأديب بحكم دأبه ، له قراء ومريدون يتابعون كل ما يكتب أينما كان ، ويحرصون على ألاَّ يفوتهم شيء من إنتاجه ، لذلك يكون للمقالة الإصلاحية التي يكتبها الأديب أثرٌ أبعد من المقالة التي تظهر في جريدة بغير إمضاء .

***

والمقالات التي تنشرها المجلات الأسبوعية والمصوَّرة هي كذلك نوع من الأدب لأنها تكتب بطريقة جذابة ذات مقدمات وأواسط ونهايات ، فضلاً عن مطابقة أسلوبها لمبادىء النحو والصرف وخضوعه لجميع قواعده . ثمَّ إن كتـاب هذه المقالات كثيراً ما يسترسلون في الخيال ويتركون له العنان فتصبح مقالاتهم قطعاً أدبية نفيسة .

أضف إلى ذلك أن الصحافة اليومية والدورية لم تتخلَّ بعد عن الأدب على الرغم من القيود التي أُلزمت على الإذعان لها بحكم شُحّ الورق وخضوعه لنظام توزيع دولي . فما فتئت الصحف اليومية جميعاً تفسح للشعراء والأدباء المجال فتنشر لهم ما تجود به أقلامهم ، ولا سيما في المناسبات الوطنية أو القومية . وتهتم بعض الصحف بمتابعة المحاضرات التي تلقى في الجمعيات الأدبيـة والعلمية وفي نوادي العاصمة المصرية وقاماتها وتنشر موجزاً لها ليطَّلع عليها الذين حالت ظروفهم دون الاستماع إليها .

علاوة على أن بعض الصحف أفرد أعداداً خاصة للأدباء والكتَّاب ، ولا يزال العدد الذي أصدرته الاهرام بمناسبة وفاة عميدها نقلا باشا متضمناً المرثيات التي دوَّنها صحبه وخلصاؤه ، ماثلاً في الذاكرة ، ولا يزال العدد الذي خصصته الصحيفة عينها لاستقبال مولد جامعة الأمم العربية يعد تحفة عالية من الأدب الخالص . وتلك الأعداد وأمثالها ، تكون متنفساً للقارىء يروِّح بها عن الأسلوب الصحفي الذي كثيراً ما يعوزه جمال الصياغة وحسن التقديم ، وكثيراً ما يكون متصفاً بالجفاف والتقحط .

كما أن الصحافة اليوميَّة كانت — قبل الحرب — تهتم بترجمة روائع الأدب الغربي

ونشرها تباعاً مساهمة منها في النهضة الفكرية . كما أنها لا تزال تفرد جانباً من أنهرها للكتابة عن المطبوعات الجديدة وحفلات التأبين والاحتفاء التي تكون عادةً كسوق عكاظ حافلةً بروائع الكلِم وبدائع النظم .

ولم تغفل الصحافة الأسبوعية بوجهٍ خاص باب القصص الذي لا يمكن لأحد أن يدّعي انتماءه الى أسرة الصحافة , فالقصص — المنقول منه والمؤلف — أدب صرف يقبل القراء في مصر عليه : اقبالاً شديداً أغرى بعض الناشرين بإصدار مجلات خاصّة للقصص ،

تلك هي الوشائج الوثيقة التي تصل بين أسرتي الأدب والصحافة ، وهي — على ما أعتقد — أوثق من أن تنال منها الأيام . وهل أدلّ على توطد هذه العلاقة من أن عدداً كثيراً من الصحفيين ورؤساء التحرير ينتمون إلى أسرة الأدب قبل أن ينتموا إلى الأسرة الصحفية

والتطور الحديث في الصحف المصرية يقتضي انتخاب محررين ممن توافرت لهم ميزات خاصة لعلّ أهمها جودة الكتابة وحسن السوغ لأن الزمن الذي كانت الجريدة لا تستطيع أن تستغني فيه عن مصحح يراجع ما يكتبه المحررون قد ولّى الى غير رجعة . وأقلع أصحاب الصحف إلاّ القليلين منهم عن سياسة الاقتصاد واستخدام الصحفي الذي تستطيع أن تدفع له مرتباً أقل من سواه .

ولا ريب في أن هذا التحول الجديد في صحافة مصر يزيد الأمل في التقريب بين الصحافة والأدب حتى لأكاد استشف من بين ثنايا المستقبل أننا مشرفون على عصر يقرأ فيه القارىء الخبر في الصحيفة فيحسب انه يقرأ قطعة من الأدب الرفيع ، لاإفراط فيها في استخدام المحسّنات الكلامية ولا قصور فيها عن استكمال دعائم الاجادة اللغوية.

* * *

هذه آراء عنّت لي بعد خبرة قصيرة الأمد في كل من ميداني الصحافة والأدب . ولو خيّرت بينهما لعسر عليّ أن أصدر حكماً .

وديع فلسطين